تَكْرِيْمُ الأَنَامِ بِالْخَلْقِ وَالْخُلُقِ وَالإِيمَانِ



أَبُو زَيْدٍ العُتَيْبِيُّ –عَفَا اللهُ عَنْهُ-.

تَكْرِيمُ الأَنَامِ بِالْخَلْقِ وَالْخُلُقِ وَالإِيمَانِ

مُتَضَمِّنٌ ثَلاثَ مَقَالاتٍ

سِلْسِلَةُ مَقَالِ الْخَطِيْبِ (٢٤) : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ .

وَيَلِيْه:

سِلْسِلَةُ مَقَالِ الْخَطِيْبِ (٥) : زَجْرُ الأَنَامِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَخْلاقِ السِّبَاعِ وَالأَنْعَامِ .

وَيَلِيْه:

سِلْسِلَةُ دَرْكِ الْبَصِيْرَةِ لِلنَّجَاةِ مِنَ الْفِتَنِ الْخَطِيْرَةِ (١١) :

مُعْتَرَكُ الأَفْهَامِ بَيْنَ الأَنَامِ وَأَشْبَاهِ الأَنْعَامِ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِيْنِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى بَنِي آدَمَ بِمِنَّةٍ عَظِيْمَةٍ، فَقَالَ ذُوْ الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ٧٠].

وَهَذَا التَّكْرِيْمُ وَالتَّفْضِيْلُ يَشْمَلُ عَدَداً مِنَ الْجَوَانِبِ؛ أَهَمُّهَا ثَلاثَةُ جَوَانِبَ:

- الأَوَّلُ: مِنْ جِهَةِ حُسْنِ خَلْقِهِ، وَجَمَالِ صُوْرَتِهِ.
- الثَّانِي: مِنْ جِهَةِ اسْتِعْدَادِهِ لِلاتِّصَافِ بِالأَخْلاقِ الْفَاضِلَةِ.

• الثَّالِثُ: مِنْ جِهَةِ اسْتِعْدَادِهِ لِلْفَهْمِ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ الشَّرِيْعَةَ الَّتِي تُصْلِحُ دِيْنَهُ وَدُنْيَاهُ.

وَهُوَ فِي كُلِّ هَذِهِ الْجَوَانِبِ مُبَاينٌ أَشَدَّ الْمُبَايَنَةِ لِسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ الْبَهِيْمِيَّةِ وَالسَّبُعِيَّةِ.

بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ بِالتَّنَزُّهِ عَنْ مُشَابَهَتِهَا فِي هَيْئَتِهَا، أَوْ طِبَاعِهَا، أَوْ عُجْمَتِهَا.

وَقَدْ يَسَّرَ اللهُ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ كِتَابَةَ ثَلاثِ مَقَالاتٍ مُسْتَوْفِيَةً الْجَوَانِبَ الثَّلاثَ السَّابِقَةَ. وَمِنْ بَابِ تَذْكِيْرِ نَفْسِي، وَمَنْفَعَةِ إِخْوَانِي أَحْبَبْتُ ضَمَّ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ الصَّغِيْرَةِ.

سَائِلاً الْمَوْلَى الْكَرِيْمَ أَجْرَهَا، وَحُسْنَ عَاقِبَتِهَا لِي وَلِمَنْ قَرَأَهَا، أَوْ دَلَّ عَلَيْهَا، أَوِ انْتَفَعَ بِهَا.

كَتَبَهُ: الْفَقِيْرُ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ

حَمَدُ أَبُو زَيْدٍ الْعُتَيْبِيُّ

قَالَ –تَعَالَى-: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِيْنِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَقُولُ اللهُ –تَعَالَى- : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ٦].

إِنَّ فِي خَلْقِ الإِنْسَانِ وَتَصْوِيْرِهِ لآيَاتٍ عَظِيْمَةٍ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تَدُلُّ عَلَى تَوْحِيْدِ اللهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ الْعُبُودِيَّة ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ وَذَلِكَ لِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ أَوْصَافُهُ

[1] سلسلة مقال الخطيب (٢٤) : { وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ } .

مِنَ الْكَمَالاتِ فِي عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعِزَّتِهِ فَهُوَ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣ – ٥٤].

كُلُّ الْعَجَائِبِ صَنْعَةُ الْعَقلِ الَّذِي *** هُوَ صَنْعَةُ اللهِ الَّذِي سَوَّاكَا

وَالْعَقْلُ لَيْسَ بِمُدْرِكٍ شَيْئاً إِذَا *** مَا اللهُ لَمْ يَكْتُبْ لَهُ الإِدْرَاكَا

للهِ فِي الآفَاقِ آيَاتٌ لَعَلَّ *** أَقَلَّهَا هُوَ مَا إِلَيْهِ هَدَاكَا

وَلَعَلَّ مَا فِي النَّفْسِ مِنَ آيَاتِهِ *** عَجَبٌ عُجَابٌ لَوْ تَرَى عَيْنَاكَا

وَالْكُوْنُ مَشْحُوْنٌ بِأَسْرَارٍ إِذَا *** حَاوَلْتَ تَفْسِيراً لَهَا أَعْيَاكَا

وَمِنْ أَعْظَمِ الآيَاتِ آيَاتُهُ النَّفْسِيَّةِ : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذَّرِيَاتُ: ٢١].

"أَيْ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الدَّلائِلِ وَالْبَرَاهِيْنِ الْمُتَمَثِّلَةِ فِي خَلْقِ الإِنْسَانِ وَأَطْوَارِهِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا مِنْ نُطْفَةٍ إِلَى عَلَقَةٍ إِلَى مُضْغَةٍ إِلَى طِفْلٍ إِلَى شَابٍ فَكَهْلٍ وَفِي إِدْرَاكِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَنُطْقِهِ إِنَّهَا آيَاتٌ أُخْرَى دَالَةٌ عَلَى وُجُودِ اللهِ وَتَوْحِيْدِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ.

وَقَوْلُهُ ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ تَوْبِيْخٌ لأَهْلِ الْغَفْلَةِ وَالإِعْرَاضِ عَنِ التَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ إِذْ لَوْ نَظَرُوا بِأَبْصَارِهِمْ مُتَفَكِّرِيْنَ بِبَصَائِرِهِمْ لاهْتَدَوا إِلَى الإِيْمَانِ والتوحيد والبعث والجزاء "(أَيْسَرُ التَّفَاسِيْرِ: ٥/١٥٨).

فَالتَّأَمُّلُ فِي حَقِيْقَةِ النَّفْسِ وَخَلْقِهَا الأَوَلَّ وَتَصْوِيْرِهَا يَقُودُ إِلَى الإِيْمَانِ بِاللهِ -تَعَالَى- وَتَعْظِيْمِهِ وَالانْقِيَادِ لَهُ وَتَوْقِيْرِهِ، كَمَا قَالَ - سُبْحَانَهُ- : ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أَيْ طَوْراً بَعْدَ طَوْرٍ كَمَا بَيَّنَهُ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ٦]. فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ: أَيْ ظُلْمَةِ الْبَطْنِ، وَظُلْمَةِ الرَّحِمْ، وَظُلْمَةِ الْمَشِيْمَةِ. فَقَدْ رَكَّبَ –تَعَالَى– عِظَامَ الإِنْسَانِ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ وَكَسَاهَا اللَّحْمَ، وَجَعَلَ فِيْهَا الْعُرُوقَ وَالْعَصَبَ، وَفَتَحَ مَجَارِيَ الْبَوْلِ وَالْغَائِطِ، وَفَتَحَ الْعُيُونَ وَالآذَانَ وَالأَفْوَاهَ وَفَرَّقَ الأَصَابِعَ وَشَدَّ رُؤُوسَهَا بِالأَظَفَارِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ غَرَائِبِ صُنْعِهِ، وَعَجَائِبِهِ، وَكُلُّ هَذَا فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ الثَّلاثِ، لَمْ يَحْتَجْ إِلَى شَقِّ بَطْنِ أُمِّهِ وَإِزَالَةِ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ.

سُبْحَانَهُ جَلَّ وَعَلا مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ وَمَا أَكْمَلَ قُدْرَتَهُ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وَلأَجْلِ هَذِهِ الْغَرَائِبِ وَالْعَجَائِبِ مِنْ صُنْعِهِ –تَعَالَى–

قَالَ بَعْدَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

وَالآيَاتُ الَّتِي أَوْضَحَ فِيْهَا تِلْكَ الأَطْوَارَ عَلَى التَّفْصِيْلِ قَوْلُهُ —تَعَالَى-: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [الْمُؤْمِنُون: ١٢-١٤] (الأَضْوَاءُ: ٣٥/٢٣ شَامِلَة).

فَتَصْوِيْرُ اللهِ لِبَنِي آدَمَ مِنْ أَدَلِّ الآيَاتِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَكَمَالِ أَوْصَافِهِ وَنُعُوتِ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ كَمَا قَالَ —تَعَالَى-: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[غَافِرٌ: ٦٤]. وَقَالَ —سُبْحَانَهُ— : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التَّغَابُنُ: ٣].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ —رَحِمَهُ اللَّهُ—: "فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ أَحْسَنَ صُوَرَهُمْ؟ قِيلَ لَهُ: جعَلَهُمْ أَحْسَنَ الْحَيَوانِ كُلِّهِ وَأَبْهاهُ صُورَةً بِدَلِيلِ أَنَّ الإِنْسَانَ لا يَتَمَنَّى أَنْ تَكُوْنَ صُوْرَتُهُ عَلَى خِلافِ مَا يَرَى مِنْ سَائِرِ الصُّوَرِ.

وَمِنْ حُسْنِ صُوْرَتِهِ أَنَّهُ خُلِقَ مُنْتَصِباً غَيْرَ مُنْكَبٍّ؛ كَمَا قَالَ —عَزَّ وَجَلَّ—: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ "(الْجَامِعُ لأَحْكَامِ الْقُرْآنِ: ١٨/١٣٤).

فَخصَّ بَنِي آدَمَ بِأَحْسَنِ الصُّوَرِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، لَيْسَ فِيْهَا رَشَاقَةُ قَدِّهِ، وَلا صَبَاحَةُ خَدِّهِ. وَتَأَمَّلِ الْعَجَبَ فِي تَرْكِيْبِ بَنَانِهِ وَجَوَاهِرِ أَسْنَانِهِ، وَقَوْسِ حَاجِبِهِ، وَنِبَالِ أَهْدَابِهِ، لَوْ غُيِّرَ شَيْءٌ مِنْهَا

عَنْ مَكَانِهِ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا نَعْلَمُهُ لَحَصَلَتِ الْبَشَاعَةُ بِهِ وَالاسْتِقْبَاحُ لِصُوْرَتِهِ.

وَفِي قَوْلِهِ —تَعَالَى-: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وَنَحْوِهَا مِنَ الآيَاتِ تَأَمُّلاتٌ وَوَقَفَاتٌ.

□ أَوَّلاً: إِنَّ الْمُصَوِّرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، كَمَا قَالَ —تَعَالَى-:

" ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الْحَشْرُ: ٢٤].

□ ثَانِياً: إِنَّ الْمُصَوِّرِيْنَ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لأَنَّهُمْ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ ، فَعَنْ عَائِشَةَ —رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ —صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، مِنْ سَفَرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ بِقِرَامٍ لِي، عَلَى سَهْوَةٍ لِي، فِيهَا تَمَاثِيلُ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ —صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسلَّمَ–، هَتَكَهُ، وَقَال: "أَشَدّ النَّاسِ عَذابًا يَوْمَ الْقِيامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ، قَالَتْ: فَجَعَلْنَاهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ" (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

□ ثَالِثًا: إِنَّ الَّذِي يُقَرِّبُ مِنَ اللهِ الإِيْمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ لا حُسْنُ الصُّورَةِ وَلا جَمَالُ الْجِسْمِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ–: "إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ، وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

□ رَابِعًا: إِنَّ الَّذِي يُزَيِّنُ الْعَبْدَ وَيُجَمِّلُهُ إِيْمَانُهُ وَعَلَمُهُ وَمَا يُثْمِرَانِهِ مِنْ حُسْنِ السَّمْتِ وَالْخُلُقِ، وَلَيْسَ حُسْنَ صُوْرَتِهِ وَجِسْمِهِ؛ فَلِذَلِكَ يَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَتَعَاهَدَ الْعِلْمَ وَالإِيْمَانَ دُوْنَ الصُّوْرَةِ وَالْجِسْمِ.

قَالَ عَبْدُ الْعَزِيْزِ الْكِنَانِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ– فِي مَجْلِسِ مُنَاظَرَةِ بِشْرٍ الْمِرِّيسِيِّ عِنْدَ الْمَأْمُونِ: فَسَمِعْتُ رَجُلاً مِنْ جُلَسَائِهِ يَقُولُ وَقَدْ دَخَلْتُ

مِنَ الإِيْوَانِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ يَكْفِيْكَ مِنْ كَلامِ هَذَا قُبْحُ وَجْهِهِ، لا وَاللّهِ مَا أُرِيْتُ خَلْقَ اللّهِ قَطُّ أَقْبَحُ وَجْهاً مِنْهُ.

فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ بِاللّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ مَنْ بَلَغَكَ إِنَّهُ كَانَ أَجْمَلَ وَلَدِ آدَمَ -عَلَيْهِ السَّلامُ- فَأَطْرَقَ مَلِيّاً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: يُوْسُفُ -عَلَيْهِ السَّلامُ-. فَقُلْتُ: صَدَقْتَ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ، فَوَاللّهِ مَا أُعْطِيَ يُوْسُفُ عَلَى حُسْنِ وَجْهِهِ شَيْئاً، وَلَقَدْ سُجِنَ مِنْ أَجْلِ حُسْنِ وَجْهِهِ فَطَالَ فِي السِّجْنِ حَبْسُهُ حَتَّى إِذَا عَبَّرَ الرُّؤْيَا وَوَقَفَ الْمَلِكُ عَلَى عِلْمِهِ رَغِبَ فِي صُحْبَتِهِ، فَقَالَ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فَكَانَ هَذَا الَّذِي بَلَغَهُ يُوْسُفُ -عَلَيْهِ السَّلامُ- بِكَلامِهِ وَعِلْمِهِ لا بِجَمَالِهِ، قَالَ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي حَسَنٌ جَمِيْلٌ، فَوَاللّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ مَا أُبَالِي إِنَّ وَجْهِي أَقْبَحُ مِمَّا هُوَ، وَإِنِّي أُحْسِنُ مِنَ الْفَهْمِ وَالْعِلْمِ أَكْثَرُ مِمَّا أُحْسِنُ" (بِتَصَرُّفٍ مِنَ الْحَيْدَةِ: ص/ ٢٥ – ٣٦).

□ خَامِساً: إِنَّ صُوْرَةَ الإِنْسَانِ مَحَلُّ تَكْرِيْمٍ، فَلا يَجُوْزُ الضَّرْبُ عَلَى الْوَجْهِ، وَلا يَجُوْزُ تَقْبِيْحُهُ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: " لَا تَقُوْلَنَّ: قَبَّحَ اللَّهُ وَجْهَكَ وَوَجْهُ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ –عَزَّ وَجَلَّ– خَلَقَ آدَمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– عَلَى صُوْرَتِهِ" (صَحِيْحُ الأَدَبِ الْمُفْرَدِ رقم: ١٧٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبْ الْوَجْهَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ" (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

□ سَادِساً: قَالَ –تَعَالَى–: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانْفِطَارُ: ٦ – ٨].

وَهَذَا التَّصْوِيْرُ فِيْهِ مِنْ غَرَائِبِ صُنْعِ اللهِ وَعَجَائِبِهِ مَا يَبْهَرُ الْعُقُولَ؛ لأَنَّكُمْ كُلَّكُمْ أَيُّهَا الْحَاضِرُونَ طُبِعْتُمْ عَلَى طَابِعٍ وَاحِدٍ، فَالأَنْفُ مِنْ جَمِيْعِكُمْ فِي مَحَلِّ الأَنْفِ، وَالْعَيْنَانِ فِي مَحَلِّ الْعَيْنِ، وَالْفَمُ فِي مَحَلِّ الْفَمِ، وَالأُذُنُ فِي مَحَلِّ الأُذُنِ، وَلَمْ يَشْتَبِهْ مِنْكُمُ اثْنَانِ حَتَّى لا يُعْرَفُ أَحَدُهُمَا مِنَ الآخَرِ، كُلُّ مَنْ رَآكُمْ يَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ صُوْرَةُ فُلانٍ، وَهَذِهِ صُوْرَةُ فُلانٍ، وَلَوْ جَاءَ مِنَ الْخَلْقِ أَعْدَادَ مَلايِيْنِ الْحَصَى لَمْ يَضِقْ عِلْمُ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى يَعْلَمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ صُوْرَةً فَيَطْبَعُهُ عَلَيْهَا لا تُشَابِهُ صُوْرَةَ الآخَرِ، وَلَمْ تَتَشَابَهْ أَصْوَاتُكُمْ وَلا آثَارُكُمْ فِي الأَرْضِ، وَلا بَصَمَاتُكُمْ فِي الْوَرَقِ، كُلُّ وَاحِدٍ طُبِعَ عَلَى طَابِعٍ مُسْتَقِلٍّ، لَمْ يُشَارِكْهُ فِيهِ غَيْرُهُ، وَلَمْ يُشَابِهْهُ غَيْرُهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ الْعَظِيْمَةِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ عَظَمَةَ الْمُتَّصِفِ بِهَا وَيُطِيْعَهُ وَلا يَتَمَرَّدُ عَلَيْهِ" (الْعَذْبُ الْمُنِيْرُ: ٣/١٠٨).

☐ سَابِعاً: "لا يَنْبَغِي قَوْلُ (عَيْبٍ خَلْقِيٍّ) لِمَا فِيْهِ مِنْ إِضَافَةِ الْعَيْبِ إِلَى الْخَالِقِ -عزَّ وَجلَّ-، قَالَ -تَعَالَى-: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السَّجْدَةُ: ٧]، وَقَالَ -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-: «كُلُّ خَلْقِ اللهِ حَسَنٌ» (السلسلة الصحيحة : ١٤٤١)، وَإِنَّمَا الْعَيْبُ يُضَافُ إِلَى ذَاتِ الْعُضْوِ، فَيُقَالُ مَثَلاً: عَيْبٌ عُضْوِيٌّ، أَوْ تَنَاسُلِيٌّ، أَوْ صَدْرِيٌّ، وَتُتْرَكُ الْعِبَارَةُ السَّابِقَةُ تَأَدُّبًا مَعَ اللّهِ -تَعَالَى- "[٢].

☐ ثَامِناً: إِنَّ الْمَلائِكَةَ لا تَدْخُلُ بَيْتاً فِيْهِ صُوْرَةٌ، فَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ" (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

● تَاسِعاً: إِنَّ التَّمَاثِيْلَ وَالصُّوَرَ سَبَبٌ فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللّهِ -تَعَالَى-، فَعَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ: "أَلَا

[٢] ينظر فتاوى متنوعة (ألفاظ في الميزان) للشيخ فركوس رقم الفتوى: ٣٩٧.

أَبعثك عَلى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ " (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

قَالَ الْفَوْزَانُ -حَفِظَهُ اللهُ-: "وَلاحِظُوا كَوْنَ الرَّسُوْلِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جَمَعَ بَيْنَ طَمْسِ الصُّوْرَةِ وَتَسْوِيَةِ الْبِنَاءِ عَلَى الْقُبُورِ مِمَّا يَدُلُّكُمْ عَلَى أَنَّ مِنَ الْعِلَلِ الْعَظِيْمَةِ فِي مَنْعِ التَّصْوِيرِ أَنَّهُ وَسِيْلَةٌ إِلَى الشِّرْكِ" (إِعَانَةُ الْمُسْتَفِيْدِ: ٢/٢٦٨).

وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيْقِ.

زَجْرُ الأَنَامِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَخْلاقِ السِّبَاعِ وَالأَنْعَامِ[٣]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِيْنِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ اللّهَ –تَعَالَى– قَسَّمَ عِبَادَهُ إِلَى صِنْفَيْنِ: فَرِيْقٍ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيْقٍ فِي السَّعِيْرِ. وَمَيَّزَ بَيْنَ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ بِأَخْلاقٍ يَتَّصِفُونَ بِهَا، وَأَعْمَالٍ يَتَلَبَّسُونَ بِهَا؛ فَأَمَّا فَرِيْقُ السُّعَدَاءِ فَهُمْ أَهْلُ الإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَأَمَّا فَرِيْقُ الأَشْقِيَاءِ فَهُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ.

وَلا يَبْلُغُ الْعَبْدُ مَرَاتِبَ الْكَمَالِ لِيَكُونَ مِنَ السُّعَدَاءِ حَتَّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ فِي اللّهِ –تَعَالَى– فَيُهَذِّبَهَا مِنْ أَخْلاقِ الْبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ دُوْنَ شَرِيْعَةٍ تُهَذِّبُهُ، وَأَعْمَالٍ تُؤَدِّبُهُ يَكُونُ فِي مِسْلاخِ الأَنَامِ عَلَى أَخْلاقِ اللِّئَامِ؛ لأَنَّ النَّفْسَ فِي أَصْلِهَا مَجْبُولَةٌ عَلَى مُقْتَضَى

[٣] سلسلة مقال الخطيب (٥) : زجر الأنام عن التشبه بأخلاق السباع والأنعام.

الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ تَسْعَى بِطَبْعِهَا فِي هَذَا الْمَيْدَانِ، هِمَّتُهَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ:

إِنَّمَا الدُّنْيَا سَمَاعٌ وَمُدَامٌ وَنَدَام * * * فَإِذَا فَاتَكَ هَذَا فَعَلَى الدُّنْيَا السَّلَام

قَالَ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [مُحَمَّدٌ: ١٢].

فَاللَّهُ -سُبْحَانَهُ- جَعَلَ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ كُلَّ مَنْ كَمَّلَ نَفْسَهُ بِمَا يُصْلِحُ أَخْلاقَهَا، وَيُهَذِّبُ طِبَاعَهَا مِنَ الإِيْمَانِ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ.

وَأَمَّا مَنِ اسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ، وَاتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا فَهُوَ عَلَى مُقْتَضَى جِبِلَّتِهِ يَتَمَتَّعُ وَيَأْكُلُ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-: "وَفِيْهَا (أَيْ: النَّفْسِ) مِنْ أَخْلاقِ الْبَهَائِمِ: حِرْصُ الْغُرَابِ، وَشَرَهُ الْكَلْبِ، وَرُعُونَةُ الطَّاوُوسِ، وَدَنَاءَةُ الْجُعْلِ، وَعُقُوقُ الضَّبِّ، وَحِقْدُ الْجَمَلِ، وَوُثُوبُ الْفَهْدِ، وَصَوْلَةُ

الأَسَدِ، وَفِسْقُ الْفَأْرَةِ، وَخُبْثُ الْحَيَّةِ، وَعَبَثُ الْقِرْدِ، وَجَمْعُ النَّمْلَةِ، وَمَكْرُ الثَّعْلَبِ، وَخِفَّةُ الْفَرَاشِ، وَنَوْمُ الضَّبُعِ غَيْرَ أَنَّ الرِّيَاضَةَ وَالْمُجَاهَدَةَ تُذْهِبُ ذَلِكَ " (الْفَوَائِدُ، ص: ٧٥).

فَالْفَيْصَلُ بَيْنَ الأَنَامِ وَأَشْبَاهِ الأَنْعَامِ؛ إِنَّمَا هُوَ فِي الأَخْلاقِ وَالطِّبَاعِ وَالأَعْمَالِ؛ فَمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً، وَجَاهَدَ فِي اللّهِ بِتَطْهِيْرِ نَفْسِهِ، وَتَعْظِيْمِ دِيْنِ رَبِّهِ فَهُوَ الْمُوَفَّقُ، وَمَن اسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ: عَظَّمَ الدُّنْيَا وَرَكَنَ إِلَيْهَا، وَظَهَرَ مِنْ أَخْلاقِهِ مَا هُوَ وَصْفٌ لِلْبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ.

أَبُنَيَّ إِنَّ مِنَ الرِّجَالِ بَهِيْمَةٌ * * * فِي صُوْرَةِ الرَّجُلِ السَّمِيْعِ الْمُبْصِرِ

فَطِنٌ لِكُلِّ مُصِيْبَةٍ فِي مَالِهِ * * * وَإِذَا أُصِيبَ بِدِيْنِهِ لَمْ يَشْعُرِ

وَلِهَذَا قَالَ اللّهُ –تَعَالَى-: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الْفُرْقَانُ: ٤٤].

وَمِمَّا حَذَّرَنَا اللّهُ مِنْهُ مِنْ أَوْصَافِ السِّبَاعِ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٥ –١٧٦].

"فَشَبَّهَ –سُبْحَانَهُ– مَنْ آتَاهُ كِتَابَهُ، وَعَلَّمَهُ الْعِلْمَ الَّذِي مَنَعَهُ غَيْرَهُ فَتَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَآثَرَ سَخَطَ اللهِ عَلَى رِضَاهُ، وَدُنْيَاهُ عَلَى آخِرَتِهِ، وَالْمَخْلُوقَ عَلَى الْخَالِقِ: بِالْكَلْبِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَخْبَثِ الْحَيَوَانَاتِ، وَأَوْضَعِهَا قَدْراً، وَأَخَسِّهَا نَفْساً، وَهِمَّتُهُ لا تَتَعَدَّى بَطْنَهُ وَأَشَدِّهَا شَرَهاً وَحِرْصاً.

وَمِنْ حِرْصِهِ أَنَّهُ لا يَمْشِي إِلا وَخَطْمُهُ فِي الأَرْضِ يَتَشَمَّمُ وَيَسْتَرْوِحُ حِرْصاً وَشَرَهاً. وَلا يَزَالُ يَشُمُّ دُبُرَهُ دُونَ سَائِرِ أَجْزَائِهِ. وَإِذَا رَمَيْتَ إِلَيْهِ

بِحَجَرٍ رَجَعَ إِلَيْهِ لِيَعَضَّهُ مِنْ فَرْطِ نَهْمَتِهِ وَهُوَ مِنْ أَمْهَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَحْمَلِهَا لِلْهَوَانِ وَأَرْضَاهَا بِالدَّنَايَا.

وَالْجِيَفُ الْقَذِرَةُ الْمروحةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّحْمِ الطَّرِيِّ. وَالْعَذِرَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْحَلْوَى. وَإِذَا ظَفِرَ بِمَيْتَةٍ تَكْفِي مِائَةَ كَلْبٍ لَمْ يَدَعْ كَلْباً وَاحِداً يَتَنَاوَلُ مِنْهَا شَيْئاً إِلا هَرَّ عَلَيْهِ وَقَهَرَهُ لِحِرْصِهِ وَبُخْلِهِ وَشَرَهِهِ ... وَفِي تَشْبِيهِ مَنْ آثَرَ الدُّنْيَا وَعَاجِلَهَا عَلَى اللّهِ، وَالدَّارِ الآخِرَةِ مَعَ وُفُورِ عِلْمِهِ بِالْكَلْبِ فِي حَالِ لَهَثِهِ (سِرٌّ بَدِيعٌ) وَهُوَ أَنَّ الَّذِي حَالُهُ مَا ذَكَرَهُ اللّهُ مِن انْسِلاخِهِ مِنْ آيَاتِهِ وَاتِّبَاعِهِ هَوَاهُ إِنَّمَا كَانَ لِشِدَّةِ لَهَفِهِ عَلَى الدُّنْيَا؛ لانْقِطَاعِ قَلْبِهِ عَنِ اللّهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ فَهُوَ شَدِيْدُ اللَّهَفِ عَلَيْهَا. وَلَهَفُهُ نَظِيْرُ لَهْثِ الْكَلْبِ الدَّائِمِ فِي حَالِ إِزْعَاجِهِ وَتَرْكِهِ وَاللَّهَفُ وَاللَّهَثُ شَقِيْقَانِ وَأَخَوَانِ" (التَّفْسِيْرُ الْقَيِّمُ، ص: ٤٤٣).

وَمِمَّا قَبَّحَهُ اللّهُ مِنْ حَالِ بَعْضِ الْعِبَادِ عِنْدَ نُفْرَتِهِمْ مِنْ ذِكْرِهِ مَا جَعَلَهُ شَبِيهاً بِالْحُمُرِ عِنْدَ نُفْرَتِهَا مِمَّا تَخْشَى ضَرَرَهُ كَمَا قَالَ –تَعَالَى–

: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ، كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [الْمُدَّثِّرُ: ٤٩–٥١].

"أَيْ: كَأَنَّهُمْ فِي نِفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ حُمُرٌ مِنْ حُمُرِ الْوَحْشِ إِذَا فَرَّت مِمَّنْ يُرِيدُ صَيْدَهَا مِنْ (أَسَدٍ)، قَالَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَابْنُ عَبَّاسٍ –فِي رِوَايَةٍ– عَنْهُ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ.

أَوْ: (رَامٍ)، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ" (تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ: ٨/٢٤٦– ٢٤٧).

وَحَذَّرَ اللّهُ –تَعَالَى– عِبَادَهُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِالْحَمِيرِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ حَالَ كَوْنِهِمْ لا يَعْمَلُونَ بِمَا عَلَّمَهُمُ اللّهُ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الْجُمُعَةُ: ٥].

"فقَاس مَنْ حمَّلَه –سُبْحَانَهُ– كِتَابَهُ لِيُؤْمِن بِهِ وَيتَدبَّرَهُ ويَعْمَل بِهِ وَيدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ خَالَفَ ذَلِكَ ولَمْ يَحمِلْهُ إلا عَلَى ظَهْرِ قَلْبٍ فَقِرَاءَتُهُ بِغَيْرِ تَدبُّرٍ وَلا تَفهُّمٍ وَلا اتِّباعٍ لَهُ وَلا تَحْكِيمٍ لَهُ وَعَمَلٍ بِمُوجَبِهِ كَحِمَارٍ عَلَى ظَهْرِهِ زَامِلَةُ أَسْفَارٍ لا يُدْرِي مَا فِيْهَا وَحظُّهُ مِنْهَا حَمْلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ لَيْسَ إلا فَحَظُّهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ كَحَظِّ هَذَا الْحِمَارِ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي عَلَى ظَهْرِهِ فَهَذَا الْمَثَلُ وَإِنْ كَانَ قَدْ ضُرِبَ لِلْيَهُودِ فَهُوَ مُتَنَاوِلٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى لِمَنْ حَمَلَ الْقُرْآنَ فَتَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ وَلَمْ يُؤَدِّ حَقَّهُ وَلَمْ يَرْعَهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ" (إِعْلامُ الْمُوَقِّعِيْنَ: ١/ ١٩٧).

وَحَذَّرَ –سُبْحَانَهُ– مِنْ طِبَاعِ الْحَمِيْرِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَقَالَ:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لُقْمَانُ: ١٩]؛ لأَنَّهُ عَالٍ مُرْتَفِعٍ، وَأَوَّلُهُ زَفِيْرٌ، وَآخِرُهُ شَهِيْقٌ فَهُوَ مُتَنَاهٍ فِي الْقُبْحِ وَالنَّكَارَةِ.

وَقَدْ تَتَابَعَتْ أَحَادِيْثُ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي مَنْعِ التَّشَبُّهِ بِالْبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ حَتَّى فِي حَرَكَاتِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ:

١) مَا جَاءَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ –رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ– عَنْ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: "اعْتَدِلُوا فِي السُّجُودِ وَلَا يَبْسُطْ أَحَدُكُمْ ذِرَاعَيْهِ انْبِسَاطَ الْكَلْبِ" (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

٢) وَمَا جَاءَ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ–، قَالَ: أَمَرَنِى رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِثَلاَثٍ، وَنَهَانِى عَنْ ثَلاَثٍ؛ نَهَانِى عَنْ نَقْرَةٍ كَنَقْرَةِ الدِّيكِ، وَإِقْعَاءٍ كَإِقْعَاءِ الْكَلْبِ، وَالْتِفَاتٍ كَالْتِفَاتِ الثَّعْلَبِ " (صَحِيْحُ التَّرْغِيْبِ وَالتَّرْهِيْبِ برقم: ٥٥٥).

٣) وَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ –صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: إِذَا سَجَدَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَبْرُكْ كَمَا يَبْرُكُ الْبَعِيرُ، وَلْيَضَعْ يَدَيْهِ قَبْلَ رُكْبَتَيْهِ " (صَحِيْحُ الْجَامِعِ برقم: ٥٩٥).

٤) وَمَا جَاءَ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ –رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا– : أَنَّ رسُولَ اللّهِ –صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: "إِنَّ اللّهَ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ

الرِّجَالِ الَّذي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ " (صَحِيْحُ التَّرمِذِيِّ برقم: ٢٨٥٣).

(يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ): "هُوَ الَّذِى يَتَعَمَّقُ فِى الْكَلامِ ويُفَخِّمُ بِهِ لِسَانَهُ ويَلُفُّهُ كَمَا تَلُفُّ الْبَقَرَةُ الْعُشْبَ بِلِسَانِهَا" (جَامِعُ الأَحَادِيثِ: ١/١١٦).

٥) وَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "الَّذِي يَرْجِعُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ" (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

وَالأَحَادِيْثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيْرَةٌ وَالْمُوَفَّقُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ حَتَّى تَتَخَلَّصَ مِنَ الأَوْصَافِ الذَّمِيْمَةِ وَالأَخْلاقِ الْبَهِيْمِيَّةِ وَذَلِكَ بِالْحِرْصِ عَلَى الإِيْمَانِ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

قَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيْقِ.

مُعْتَرَكُ الأَفْهَامِ بَيْنَ الأَنَامِ وَأَشْبَاهِ الأَنْعَامِ[٤]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الْحَمْدُ للّهِ وَكَفَى، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الْمُصْطَفَى، وَعَلَى آلِهِ، وَصَحْبِهِ، وَمَن اهْتَدَى.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ الْكَلِمَةَ (أَدَاةُ التَّخَاطُبِ)، وَمَا مِنْ شَكٍّ فِيْهِ أَنَّهَا تَخْتَلِفُ أَلْفَاظُهَا فِي الْمَوْضُوعِ الْمُعَيَّنِ بِاعْتِبَارِ لُغَةِ كُلِّ قَوْمٍ، إِلا أَنَّ مَعْنَاهَا وَمَدْلُولَهَا وَاحِدٌ، فَاللَّفْظُ وَسِيْلَةٌ وَالْمَعْنَى غَايَةٌ.

وَلِهَذَا كَانَ نَظَرُ الْعُقَلاءِ –عِنْدَ الاشْتِبَاهِ– إِلَى الْمَعَانِي، كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ–: "فَفَقِيْهُ النَّفْسِ يَقُولُ: مَا أَرَدْتَ؟ وَنِصْفُ الْفَقِيْهِ يَقُوْلُ: مَا قُلْتَ؟" (إِعْلامُ الْمُوَقِّعِيْنَ: ٣/٥٤).

---

[٤] مقال سلسلة: درك البصيرة للنجاة من الفتن الخطيرة (١١). كتب في: ١٢/محرم/١٤٣٤.

(وَالْمَعْنَى): هُوَ جُمْلَةُ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ الْمُسْتَقِرَةِ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ –بَدَاهَةً أَوِ اكْتِسَاباً–.

(وَاللَّفْظُ): هُوَ الصَّوْتُ الْحَرْفِيُّ الْمُعَبِّرُ عَنِ (الْمَعْنَى) بِقَصْدِ التَّفْهِيمِ لِلْمُخَاطَبِ.

فَيَتَلَخَّصُ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْمُعْطَيَاتِ عَدَدٌ مِنَ الأُصُولِ الرَّئِيْسِيَّةِ فِي حَقِيْقَةِ التَّخَاطُبِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَلا بُدَّ مِنْ:

- غَايَةٍ مَطْلُوبَةٍ مَقْصُودَةٍ، وَهِيَ: (الْمَعْنَى).
- وَوَسِيْلَةٍ مُوْصِلَةٍ لِلْمَقْصُودِ، وَهِيَ: (اللَّفْظُ).
- وَغَرَضٍ صَحِيْحٍ لِلْمُتَكَلِّمِ، وَهُوَ: (تَفْهِيمُ الْمُخَاطَبِ).

وَهَذِهِ الأُصُولُ الرَّئِيْسِيَّةُ هِيَ (شُرُوطُ الْبَيَانِ التَّامِّ):

١) الْعِلْمُ.

٢) وَالْفَصَاحَةُ.

٣) وَالنُّصْحُ.

فَكُلُّ مَنِ اجْتَمَعَتْ فِيْهِ هَذِهِ الأُصُولُ كَانَ خِطَابُهُ بَيَاناً هَادِياً، فَإِنْ زَادَ اتِّصَافُهُ بِهَا بِأَنْ كَانَ: أَعْلَمَ، وَأَفْصَحَ، وَأَنْصَحَ كَانَ خِطَابُهُ أَبْيَنَ وَأَهْدَى. وَهِيَ صِفَةُ الرُّسُلِ —عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ— وَصِفَةُ أَتْبَاعِهِمْ.

وَالْخَلَلُ النَّاشِئُ فِي عُلُومِ النَّاسِ قَائِمٌ عَلَى خَلَلٍ فِي أَحَدِ هَذِهِ الأُصُولُ الثَّلاثَةُ:

- إِمَّا أَنَّهُمْ قَبِلُوا خِطَابَ مَنْ لا عِلْمَ عِنْدَهُ —تَقْلِيْداً أَوْ تَعَصُّباً—.
- وَإِمَّا أَنَّهُمُ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ خِطَابُهُ: كَإِجْمَالِهِ فِي مَوْضِعِ الْبَيَانِ، أَوْ تَعْمِيْمِهِ فِي مَوْضِعِ التَّخْصِيْصِ، أَوْ إِطْلاقِهِ فِي مَوْضِعِ التَّقْيِيْدِ.
- وَإِمَّا أَنَّهُمْ لُبِّسَ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، أَوْ كُتِمَ الْحَقُّ عَنْهُمْ — تَضْلِيْلاً وَتَدْلِيْساً—.

وَمَرْجِعُ الْخَلَلِ يَعُودُ إِلَى نَقْصٍ فِي (الْعِلْمِ)، أَوِ (الْقُدْرَةِ)، أَوِ (الإِرَادَةِ):

فَمِنْ (نَقْصِ العِلْـمِ): أَنْ لا يَكُونَ عِنْدَهُ عِلْمٌ فِيْمَا يُخَاطِبُ بِهِ النَّاسَ.

وَمِنْ (نَقْصِ الْقُدْرَةِ): أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ عِلْمٌ لَكِنَّهُ لا يُحْسِنُ التَّعْبِيْرَ عَنْهُ وَبَيَانَهُ لَهُمْ.

وَمِنْ (نَقْصِ الإِرَادَةِ): أَنْ لا يَقْصِدَ تَفْهِيْمَهُمْ وَتَبْيِيْنَ الْحَقِّ لَهُمْ بِكَتْمِهِ، أَوْ تَحْرِيْفِهِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْمُنْطَلَقَاتِ يَبْدَأُ: تَشْخِيْصُ دَاءِ (مُعْتَرَكِ الأَفْهَامِ)، وَتَمْيِيْزُ طُلابِ الْحَقِّ مِنْ (أَشْبَاهِ الأَنْعَامِ).

وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مَعْرِفَةَ الدَّاءِ؛ لأَنَّهُ أَضْحَى وَاضِحاً لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ، وَأُذُنَيْنِ. وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ الأَعْظَمُ مَعْرِفَةُ الدَّوَاءِ النَّافِعِ لِهَذَا الْمَرَضِ الْعُضَالِ الَّذِي بَاتَ (كَلَيْلٍ مَاتَ صَبَاحُهُ).

وَخُلاصَةُ الشِّفَاءِ تَتَمَثَّلُ فِي إِحْكَامِ مَوَاضِعِ الْخَلَلِ فِي (الْبَلاغِ — خِطَاباً، وَفَهْماً– لِيَتَجَاوَزَهَا الْعَبْدُ، فَلا يَقْبَلُ مِنَ الْخِطَابَاتِ إِلا الْبَلاغَ الْمُبِيْنَ، وَذَلِكَ بِإِحْكَامِ:

- أَصْلِ الْعِلْمِ.
- وَآلَةِ الْفَهْمِ.

وَحَقِيْقَةُ (أَصْلِ الْعِلْمِ) فَهُوَ: (الإِيمَانُ بِاللهِ وَرَسُوْلِهِ).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ –رَحِمَهُ اللهُ–: "قَاعِدَةٌ أَوَّلِيَّةٌ: أَنَّ أَصْلَ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ وَمَبْدَأَهُ وَدَلِيلَهُ الْأَوَّلَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا: هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ " (مَجْمُوْعُ الْفَتَاوَى: ٢/١).

فَالإِيْمَانُ بِاللهِ –تَعَالَى– يَتَضَمَّنُ مَعْرِفَتَهُ، وَمَحَبَّتَهُ، وَمَعْرِفَةَ حُقُوْقِهِ، وَالْجَزَاءَ عَلَيْهَا.

فَالْمُؤْمِنُ بِاللهِ –تَعَالَى– هُوَ الْعَالِمُ بِاللهِ، وَبِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ؛ فَيُحِبُّهُ، وَيَخَافُهُ،

وَيَرْجُوْهُ، كَمَا قَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

فَالإِيْمَانُ بِاللّهِ -تَعَالَى- (يُوْجِبُ النُّصْحَ) فَيَدْفَعُ الْعَبْدُ عَنْ نَفْسِهِ مُوْجِبَاتِ فَسَادِ الإِرَادَةِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْحَسَدِ وَالْبَغْيِ؛ فَتَصْلُحُ عِنْدَهُ الإِرَادَةُ فَيَكُونُ صَادِقاً وَنَاصِحاً وَمُبَيِّناً.

وَالإِيْمَانُ بِالرَّسُوْلِ -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَتَضَمَّنُ: مَحَبَّتَهُ، وَتَصْدِيْقَهُ، وَطَاعَتَهُ، وَمُتَابَعَتَهُ.

فَالْمُؤْمِنُ بِالرَّسُولِ عَلَى الْكَمَالِ هُوَ الْعَالِمُ بِأَمْرِ اللّهِ، أَيْ: بِشَرْعِهِ - أَمْراً وَنَهْياً- وَالْمُتَّبِعُ لَهُ.

وَالإِيْمَانُ بِالرِّسَالَةِ (يُوْجِبُ الْعِلْمَ) الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ الْعَبْدُ عَنْ نَفْسِهِ نَقْصَ الْمَعْرِفَةِ فِي إِصَابَةِ الْحَقِّ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْجَهْلِ، فَاتِّبَاعُ الرِّسَالَةِ يُنَافِي التَّقْلِيْدَ الأَعْمَى، وَالتَّعَصُّبَ لِلرِّجَالِ.

وَأَمَّا (آلَةُ الْفَهْمِ) فَهِيَ (اقْتِفَاءُ آثَارِ السَّلَفِ) الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى رَكَائِزِ الرُّسُوخِ فِي الْعِلْمِ –مَعْرِفَةِ مَقَاصِدِ الشَّرِيْعَةِ، وَمَعْرِفَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ– الْمُبَايِنَةُ لِطَرِيْقَةِ أَهْلِ الْبِدَعِ الزَّائِغِيْنَ الْمُتَّبِعِيْنَ لِلْمُتَشَابِهَاتِ.

وَهَذَا (يُوْجِبُ الْقُدْرَةَ) عَلَى فَهْمِ النَّصِّ الشَّرْعِيِّ وَالتَّعْبِيْرِ عَنْهُ.

"وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي رِسَالَةِ عبدوس بْنِ مَالِكٍ : " أُصُولُ السُّنَّةِ عِنْدَنَا : التَّمَسُّكُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالِاقْتِدَاءُ بِهِمْ وَتَرْكُ الْبِدَعِ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " (مَجْمُوْعُ الْفَتَاوَى : ٤/١٠٢).

فَاتِّبَاعُ الصَّحَابَةِ يَرْفَعُ الاشْتِبَاهَ عَنِ الْخِطَابِ الشَّرْعِيِّ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَقَاصِدِ الرِّسَالِيَّةِ، وَعِلْمٍ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (غَافِرٌ: ٣٠–٣٣).

فَاللَّهُمَّ هُدَاكَ نَسْأَلُ.